العرب
الجمعة 2020/03/13
السنة 42 العدد 11645

النقد الأدبي الجزائري معزول عن محيطه الأفريقي والعالمي

الثقافة الجزائرية تراوح بين عنفوان الماضي وكآبة الحاضر

رغم أن الجزائر استقبلت مطلع القرن العشرين العديد من الكتاب والمثقفين والشعراء والفنانين والمفكرين، فإنها لم تحافظ على زادها الثقافي الذي خلّفه هؤلاء، إذ تراجع المشهد الثقافي الجزائري بعد الاستقلال بشكل كبير، ولم يستفد الجزائريون مما سبق ولم يطوروا من ساحتهم الثقافية التي باتت تنعزل يوما فآخر، فما هو السبب وما هي الحلول.

أزراج عمر
كاتب جزائري

أسئلة كثيرة يثيرها المشهد الثقافي في الجزائر من بينها لماذا لم تنتج الجزائر مدارس ونظريات ومفاهيم نقدية أدبية على مدى 57 سنة من الاستقلال؟ وكيف نفسر غياب الصحافة الأدبية المتخصصة والتي يشرف عليها أدباء ونقاد أكفاء، كما كان الأمر نسبيا في بدايات الاستقلال حتى نهاية فترة ثمانيات القرن الماضي، علما أن تعداد الصحف اليومية والأسبوعية الصادرة الآن في البلاد هي أكثر بكثير من عدد الصحف والمجلات التي كانت تصدر قبل عشرين سنة؟

> النقد الأدبي هو جزء من الوضع العام وتطويره مشروط بتفعيل الرأسمال الوطني وتقدم المجتمع وأساليب إنتاجه

كما نتساءل إزاء هذا المشهد لماذا لم ينجح النقد الأدبي الأكاديمي الذي ينتج راهنا في الجامعات الجزائرية أن يبتعد عن اجترار النظريات والمقاربات المستوردة التي تفرض غالبا على النصوص الأدبية الجزائرية وجراء ذلك أصبح معظم قاموس النقد الأدبي الجامعي عبارة عن جداول رياضية صماء؟

الأزمة وأسبابها

بطبيعة الحال إن العوامل المذكورة سلفا ليست وحدها السبب المركّب والجوهري الذي يعرقل تطور النقد الأدبي في الجزائر، بل هناك أسباب أخرى حالت ولا تزال تحول دون تأسيس تقاليد النقد الأدبي الجزائري المتميز أسوة بجهود جيراننا الأفارقة الذين طوروا ويوصلون تطوير نقدهم الأدبي بواسطة انتهاج مسارين وهما تجنب اجترار المصطلحات والمفاهيم والمقاربات الأوروبية/ الغربية، واستلهام مرجعيات الأبعاد الفلسفية والصفات الحضارية الأفريقية التي يفترض أن الجزائر تشترك فيها ولكن هذه الشراكة لم تستثمر وتفعل حتى يومنا هذا.

في هذا السياق من يمكن القول إن تطوير النقد الأدبي مشروط بتفعيل الرأسمال الوطني وبتقدم المجتمع وأساليب إنتاجه وعيشه ومناهج تفكيره. وعلى هذا الأساس فإن النقد الأدبي هو جزء من الوضع العام ولا يمكن النظر إليه كحالة استثنائية أو كجزيرة معزولة، ولاشك أن تخلف البنية الثقافية في أي بلد من البلدان يؤثر بقوة في إضعاف النقد الأدبي الذي ينبغي أن يتأسس على تقدم الفكر والعلم وعلى مختلف أشكال التطور المادي والاجتماعي.

وقد لوحظ أن الوضع الجزائري المتهافت هو الذي يطبع ويفرز راهنا، وعلى نحو سلبي، بانوراما الحياة الثقافية الوطنية الجامدة والمتخلفة بما في ذلك النقد الأدبي. إنه رغم تعميم التعليم ومحو بعض الأمية الحرفية جزئيا، ولا نقول الأميّات الفكرية والجمالية.

ورغم تزايد طلاب شعب الأدب والنقد الثقافي والدراسات المسرحية في الجامعات الجزائرية التي تقدر بخمسين جامعة ومركز جامعي، فضلا عن المدارس العالية، فإن مكوّنات البنية الثقافية الجزائرية وفي صميمها النقد الأدبي الذي يفلسف ويعيد بناء عوالم الإنتاج الأدبي الإبداعي ويخلق الذوق الجمالي في المجتمع وينشئ القراء والمقروئية الذي لا تزال تخطو خطوة إلى الأمام حينا وخطوتين إلى الوراء أحيانا أخرى على نحو أشبه بحال الرقصة الأسبانية.

من الملفت للنظر أن النقد الأدبي في المشهد الثقافي الجزائري كان في بدايات الاستقلال والسنوات التالية أكثر حيوية رغم دورانه في إطار البؤر النظرية التقليدية ونعني بهذه الحيوية نشاط النقاد الجزائريين التقليديين الذي تميزوا بالمتابعة المتواصلة عرضا وتقديما وتحليلا للإنتاج الأدبي الصادر حينذاك إيمانا منهم أن تلك المهمة لا تختزل فقط في ممارسة سبر وتقييم وتقويم النصوص الإبداعية بل فإنها تدخل في تقديرهم في صميم الالتزام الوطني ببناء الهوية الأدبية الجزائرية وتنمية الشخصية الثقافية الوطنية، وبذلك صار النقد الأدبي للإنتاج الإبداعي رديفا لمقاومة الجهل وفعلا ثقافيا وطنيا على طريق تجاوز مخلفات الحقبة الاستعمارية التي خلخلت وأخرت مختلف أشكال التعبير الثقافي والفني الوطني.

انتعاشة سابقة

في ذلك المناخ فقد اعتبر النقد الأدبي شكلا من أشكال الالتزام الثقافي والروحي بغض النظر عن المواقف والمقاربات التقليدية التي كانت تميز أغلب نقاد تلك المرحلة.

أما بخصوص المؤثرات الأخرى التي ساهمت في توليد وتفعيل النقد الأدبي ذي الطابع الصحافي أو الجامعي الجزائري فينبغي التوقف بسرعة عند مساهمات عدد من الأدباء والنقاد الذين اتخذوا الجزائر مسكنا لهم وموقعا لتجاربهم الأدبية.

وتكمن أهمية هؤلاء من التفاعل بصدق مع المواهب الأدبية الجزائرية بواسطة حضور ندواتهم ومناقشة نصوصهم الإبداعية وأفكارهم ذات الصلة بآليات الكتابة.

وهكذا يمكن للمؤرخ الأدبي لهذا التفاعل المذكور أن يذكر عددا من الأدباء المشارقة والمغاربة والتوانسة والفرنسيين الذين أقاموا بالجزائر كأساتذة أو متعاونين في مؤسسات أخرى مباشرة بعد الاستقلال وساهموا في تغذية الحركة الأدبية الجزائرية، منهم على سبيل المثال الشاعر التونسي منور صمادح، والشاعر السوري شوقي بغدادي، والشاعر العراقي سعدي يوسف والمسرحيون المصريون مثل ألفريد فرج وسعد أردش وكرم مطاوع، والروائي الفلسطيني أفنان القاسم والشاعر العراقي محمد البوسطاجي، والروائي السوري وحيدر حيدر، والشاعر المغربي محمد علي الهواري، والناقد السوري شكري فيصل، والروائي المصري يوسف أبو رية، والمترجم والدارس الأدبي الفرنسي جان ديجو، وغيرهم.

هناك معلم آخر لا يقل أهمية وهو زيارات الشعراء والنقاد للجزائر في أواخر ستينات وسبعينات القرن الماضي الذين أحيوا الأمسيات الشعرية وإلقاء المحاضرات في النقد الأدبي والفكري منهم نزار قباني ومحمود درويش، وعبدالوهاب البياتي، ومحمد مهدي الجواهري، ومحمود أمين العالم ويوسف إدريس، وسهيل إدريس، ويوسف السباعي، وحسن حنفي، وسليمان العيسى، وحسين مروة، وخلدون الشمعة وغيرهم كثير جدا.

في مثل ذلك المناخ الإيجابي تعددت الندوات في قاعات المقار، والأطلس، والمسرح الوطني، والنفق الجامعي، واتحاد الكتاب الجزائريين وغيرها وقد تميزت تلك الندوات المنتظمة والمشبعة بدفء المثاقفة بمناقشات جدية ذات طابع نقدي شارك فيها أدباء جيل حركة التحرر الوطني وجيل الاستقلال وكثيرا ما نقل النقاش في تلك القاعات إلى جريدة الشعب، ومجلات المجاهد الأسبوعي، والجيش، وآمال، والثقافة، والثقافة والثورة، والوحدة فضلا عن جريدتي الجمهورية بوهران والنصر بقسنطينة، وكان ذلك كله دافعا حيويا للحركة الأدبية بشكل عام وللمحاولات النقدية بشكل خاص وهو ما نفتقده الآن في جزائر القرن الواحد والعشرين مع الأسف.

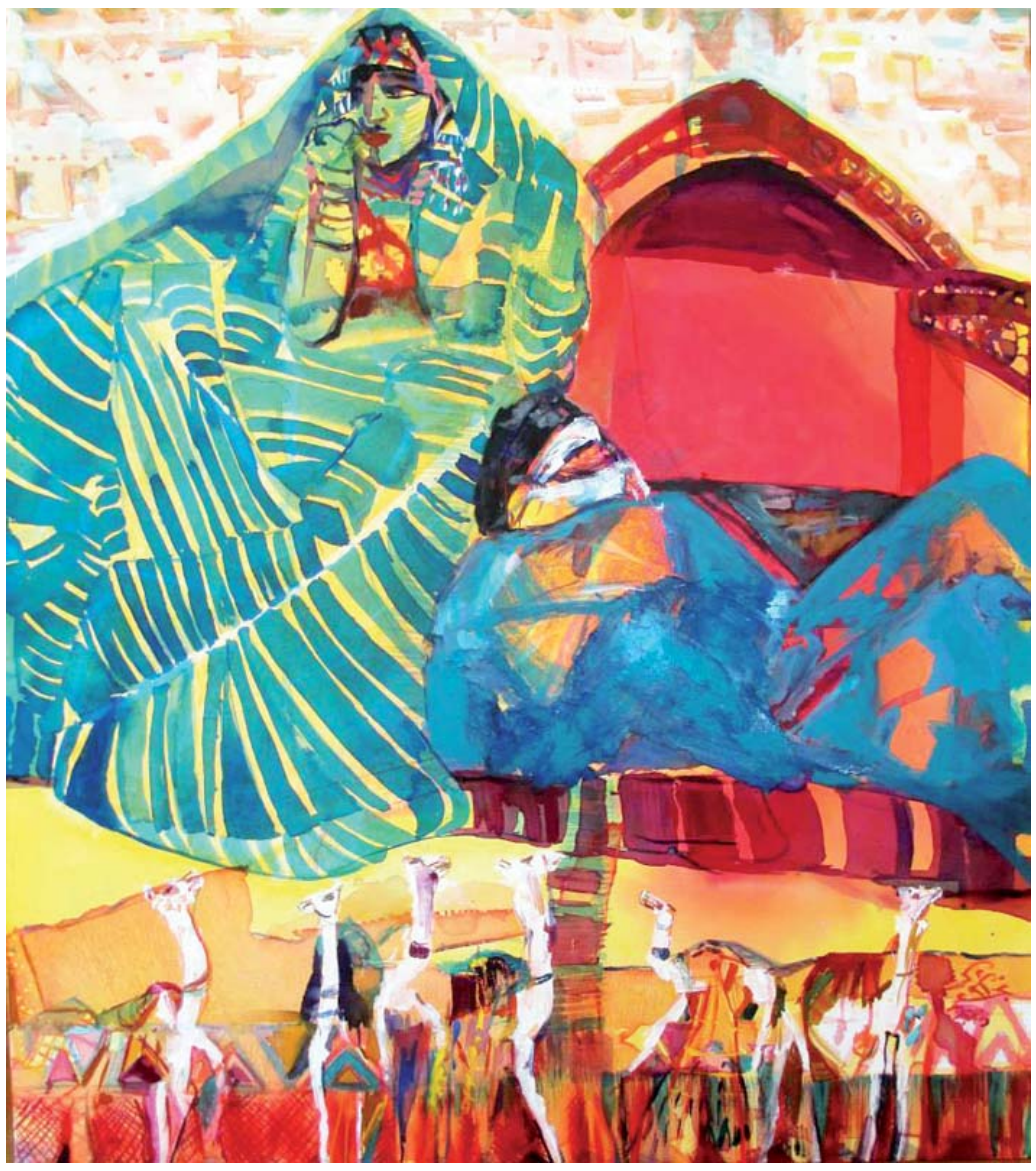

النقد في الجزائر مثل المجتمع كلاهما لم يتطور (لوحة للفنانة نجلاء الفيتوري)

«لا نسبح في النهر مرتين» رواية عن تاريخ تونس

النفيضة (تونس) – انتظم أخيرا في المتحف الأثري بمدينة النفيضة، جنوب العاصمة التونسية، لقاء مع الكاتب التونسي حسونة المصباحي، احتفاء بروايته الجديدة "لا نسبح في النهر مرتين"، الصادرة حديثا عن دار الآداب ببيروت.

وبعد كلمة الترحيب به والتي ألقاها الكاتب والشاعر سفيان رجب، أشار المصباحي إلى أنه خطط منذ البداية أن تكون روايته المذكورة "مغامرة في السرد"، متجنبا تكرار نفسه، ومحاولا أن يقدم ما يقنع القراء والنقاد بأن سر الإبداع الحقيقي هو أن يحرص الكاتب على أن يؤكد دوما أنه قادر على أن يأتي بما هو جديد سواء على مستوى اللغة أو على مستوى الأساليب التقنية، أو على مستوى المضامين.

وأضاف المصباحي قائلا إن روايته المذكورة "طُبخت على نار هادئة" إذ أنه ظل ينتظر تطورات الأحداث التي أعقبت انهيار نظام بن علي، ملاحقا تبعاتها وانعكاساتها على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ومتنقلا بين مختلف المناطق لمعاينة تأثيراتها على الناس بمختلف فئاتهم ومشاربهم.

ولم يشرع المصباحي في الكتابة عما رصده من أحداث إلا حين أصبح متيقنا من أنه قادر على أن يلتقط تفاصيل تلك الأحداث، وبسط تعقيداتها من خلال "مغامرته السردية الجديدة".

وقد اختار المصباحي ثلاث شخصيات لتروي كل واحدة منها، ومن زاويتها الخاصة الأحداث التي شهدتها البلاد بعد انهيار نظام بن علي في الرابع عشر من شهر يناير 2011.

ويسرد الكاتب أيضا أحداثا أخرى تعود إلى فترات مختلفة من التاريخ التونسي المعاصر سواء قبل استقلال البلاد أو بعده مثل حرب الجلاء عن مدينة بنزرت التي خاضها التونسيون ضد الاستعمار الفرنسي، وهزيمة 67، والعديد من الأحداث الأخرى.

كما اختار المصباحي أن تكون الشخصيات الثلاث مقيمة في "المدينة البحرية" التي قد تكون بنزرت الواقعة في أقصى شمال البلاد. أما الرابط الوحيد بينها فثقافي وفكري فقط.

سليم هو إحدى الشخصيات الثلاث وهو موظف في شركة للتأمين في "المدينة البحرية" التي قدم إليها بعد أن عمل سنوات طويلة في العاصمة. وهو يعيش حياة هادئة مع زوجته الجميلة وابنته الصغيرة البالغة من العمر ثمانية أعوام.

وعن طريق زوجته التي تُدرّس اللغة الإنجليزية، اكتشف الأدب الأميركي، وفتن به ليصبح قارئا نهما لروايات كثيرة، خصوصا روايات كارسن ماك كلرس، تلك الكاتبة الجنوبية التي أبدعت أعمالا هامة في عمرها القصير مثل "أنشودة المقهى الحزين".

لكن الحياة السعيدة والهادئة التي يعيشها سليم سرعان ما تتعكر بعد أن غزت البلاد جحافل الأصوليين المتطرفين ناشرة العنف والفوضى والخوف في كل مكان. وشيئا فشيئا تتحول حياة سليم إلى سلسلة من الكوابيس المرعبة، فتتعفن علاقته بزوجته وبابنته وزملائه في العمل، وبأصدقائه أيضا.

وتزداد محنته سوءا بعد أن يعجز عن استعادة توازنه النفسي، ويتحول إلى كائن غريب يخشاه أقرب الناس إليه، ومنه تهرب ابنته الصغيرة.

وفي النهاية يسقط سليم في ليل الجنون بعد أن يهجم على زوجته وابنته الصغيرة بسكين مهددا بذبحهما.

وعزيز هو الشخصية الثانية، وهو عجوز بشع تقاعد عن العمل في البريد لعيش وحدة الشيخوخة مرارتها. وهو ابن المدينة البحرية، فيها عاش طفولة شقية إذ أن والده أهمله وهو رضيع. أما والدته فقد توفيت بمرض غريب وهو في الثامنة من عمره ليجد نفسه وحيدا في مدينة قاسية.

وهو يروي لنا بطريقته المحايدة والساخرة فصولا من حياته المعذبة، متطرقا إلى علاقته بسيدة فرنسية رفضت مغادرة المدينة البحرية بعدما غادرها الجيش الفرنسي، وبمراد الذي يقاسمه اليتم والتشرد، وبسليم الذي تعرف عليه عند قدومه إلى المدينة البحرية لتتوطد علاقته به بسبب حبهما للكتب وللأفلام.

كما يروي لنا عزيز بطريقته الخاصة تبعات أحداث حرب الجلاء عن بنزرت، وانعكاسات هذه الحرب على سكان المدينة.

أما عمران فهو الشخصية الثالثة. ولا ينكر حسونة المصباحي التشابه الكبير بينه وبين المفكر التونسي "المنشق" العفيف الأخضر الذي ربطته به علاقة فكرية وطيدة امتدت إلى أزيد من ثلاثين سنة.

> الكاتب اختار ثلاث شخصيات لتروي كل واحدة منها، ومن زاويتها الخاصة الأحداث التي شهدتها البلاد التونسية

ومثل العفيف الأخضر درس عمران في جامع الزيتونة، وتمرد على شيوخه المتزمتين، وعرف السجن في فترة المقاومة ضد الاستعمار في مطلع الخمسينات من القرن الماضي.

وبعد الاستقلال اصطدم بنظام بورقيبة رغم مناصرته لهذا الأخير خلال صراعه مع خصمه صالح بن يوسف فهاجر إلى باريس ليبدأ رحلة طويلة قادته إلى الجزائر في أول استقلالها، وإلى برلين الشرقية ليكتشف الجوانب المظلمة لدى الأنظمة الشيوعية، ثم إلى بيروت ليناصر الثورة الفلسطينية، لكنه سرعان ما يصاب بخيبة مرة فيترك بيروت قبيل الحرب الأهلية ليعود إلى باريس، وفيها يتحد مع نفسه، متخلصا من أوهامه الثورية، ومن الأيديولوجيات المدمرة، منصرفا للتأليف والكتابة. وهو يأتي إلى المدينة البحرية مرة في السنة لقضاء أسابيع فيها ولا علاقة له سوى بسليم وعزيز. وعبر عمران نحن نتعرف على تقلبات المثقف العربي، وخيباته، وأحلامه في فترات مختلفة من التاريخ التونسي والعربي.

«بومة منيرفا» لسيف الرحبي احتفاء بالفلسفة والأمكنة

مسقط – يستمد الشاعر سيف الرحبي عنوان كتابه الأخير "بومة منيرفا رحلات ومقالات" من الفكرة الهيغلية التي تقول إن البومة لا تحلّق إلا في الظلام. هكذا هو دور الفكر والفلسفة في عصور الظلام التي تمرُّ بها الأمم أو الشعوب، تحلّق الأفكار وحيدة فتحاصرها الغربة، وربما تُرْجَم بتهمة الإبصار في العتمة. ثم لا بدَّ أن يُنتهك العقل ويُزدرى الضمير، فيصيح الصائحون "أخرجوا الفلاسفة من أرضكم إنهم أناسٌ يُفكّرون".

ويمزج المؤلف في كتابه الصادر عن، الآن ناشرون وموزعون، بالأردن وقائع تجربته الشخصية بما هو ابتلاء عام يستوي أمامه أن تكون عُمانياً، أو يمنياً، أو عراقياً، أو شامياً، أو مصرياً، أو مغربياً؛ فالقضايا واحدة والهموم مشتركة، يعانيها أبناء هذه الأمة من محيطها إلى خليجها.

يقول الرحبي في إحدى مقالاته التي تتناول رؤاه وانطباعاته خلال تجواله في ردهات الذات وتعرجات الأمكنة "مسميات الأماكن تختلف من بلد عربي إلى آخر، لكن وجوه الضحايا وفحوى المجزرة واحد، المجزرة في وجوهها ومعانيها المختلفة، من المعنى المادي المباشر الذي يعني جزْر، وتشريد الآلاف والملايين، في صحارى العري الراشح بالموت الجماعي، والأخاديد التي فتحتها الطبيعة الأزليّة بخضمّ الرمال المتحولة، إلى المعاني الرمزيّة، والأخلاقيّة الروحيّة التي قُبرتْ قبل دخول الضحايا المثوى الأخير في مقابرهم الجماعيّة، والفرديّة".

جاء أسلوب الكاتب هادئاً وقادراً على ضبط إيقاعه أمام مشهد الأزمة؛ إذ تتدفّق لغته، لكنها لا تنفعل، وإذا غضبت لا تجلد الذات. لذلك تمكن الرحبي من أن يقول أشياء كثيرة في هذا الكتاب؛ فالعمل في أساسه عمل أدبي، يتحدّث صاحبه في الجزء الأول منه عن رحلاته إلى المغرب وبريطانيا وفرنسا، فيسترسل ويستطرد، ويتنقل بين الجغرافيا والفلسفة والذكريات، بأسلوب شيق، ولغة جميلة، وأفكار متماسكة تحيل كلّ منا إلى ما يتلوها.

أما الجزء الثاني، فيخصّصه الرحبي لمجموعة من مقالاته التي كُتبت لتكون افتتاحيات لمجلة "نزوى" التي يرأس تحريرها.

وجاء على الغلاف الأخير للكتاب الذي يناقش الواقع العربي المعاصر بانفتاح وعمق وبعد عن الانحيازات "كانت البومة عند الإغريق القدماء ترمز إلى الحكمة أو الفلسفة، حتى ساءت سمعتها في القرون الوسطى الأوروبية، إذ تحوّلت إلى رمز للشؤم والخراب. وكذلك في الوعي العربي الذي يتطابق واقعاً ورمزاً مع تلك الحقبة السوداء في التاريخ الأوروبي التي سبَقت ومهّدت للانعطافات الحضاريّة الكبرى اللاحقة. في المنحى العربي الشرقي، نجد البومة في أسوأ صورها حتى لدى حيوانات ابن المقفّع، حيث يقوم الغراب بقذف البومة بأقبح الصفات صورةً وصوتاً وسلوكاً".